مراجعة كتاب . . .

# « آثار وتاريخ فلسطين»
# مراجعة علمية-نقدية

**مراجعة : غالب عبد أحمد عربيات**

جامعة البلقاء التطبيقية

رئيس جمعية المؤرخين الأردنيين

ga_arabiat@yahoo.com

تاريخ النشر : 2026/06/20 (العدد (31) ، صيف 2026)

**مجموعة باحثين**

سنة النشر : 2025

**دار النشر**

رام الله : مركز الأبحاث الفلسطيني

**حجم الكتاب** : 779 صفحة من القطع المتوسط (24سم × 17سم)

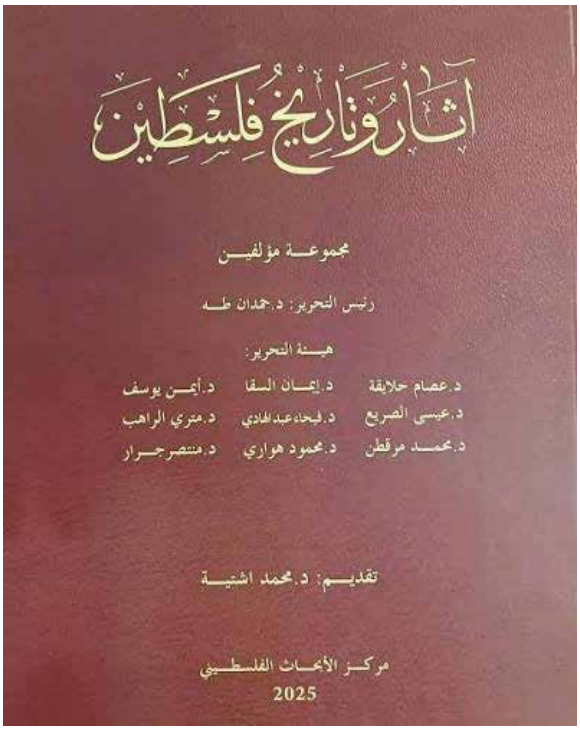

**المقدمة**

يُعدّ كتاب « آثار وتاريخ فلسطين» (2025) ، في طبعته الأولى ، عملًا موسوعيًا جماعيًا ذا طابع مرجعي ، صدر عن مركز الأبحاث الفلسطيني في القدس ، بإشراف وتحرير حمدان طه ، وبتقديم من رئيس مجلس إدارة المركز محمد اشتية ، وبمساهمة نخبة من الأكاديميين والباحثين المتخصصين في مجالات الآثار والتاريخ والتراث . يقع الكتاب في نحو 780 صفحة ، ويضم قرابة 38 فصلًا موزعة على سبعة أقسام زمنية تغطي تاريخ فلسطين منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى الزمن المعاصر ، مدعمًا بكمٍّ غني من الخرائط والصور والأشكال التوضيحية ، ما يمنحه طابعًا مرجعيًا موسوعيًا .

**أولًا : بنية الكتاب**

يعرض الكتاب التسلسل الزمني لتاريخ فلسطين والتعاقب الحضاري عليها برؤية كرونولوجية شاملة تسعى إلى تقديم تاريخ فلسطين بوصفه امتدادًا زمنيًا متصلًا ، حيث تتعاقب العصور ضمن إطار تاريخي واضح يبدأ من نشأة الإنسان وينتهي بالواقع السياسي المعاصر . ويضع هذا العرض القارئ مباشرة داخل الإطار السردي والزمني الذي اعتمده الكتاب ، مما يعزز إدراكه لتتابع الأحداث .

غير أن هذا البناء ، على الرغم من دقته وشموليته ، يظل في جوهره خطيًا وصفيًا ، حيث يركّز على ترتيب العصور أكثر من تحليل العلاقات التحولية بينها . فالزمن هنا يُقدَّم بوصفه سلسلة متتابعة ، دون تفكيك كافٍ لديناميات التغير أو آليات الاستمرارية التي تربط بين هذه المراحل .

ومن هنا ، فإن القيمة العلمية لهذا التسلسل لا تكمن فقط في عرضه ، بل في إمكانية قراءته بوصفه مدخلًا لتحليل أعمق ، يُحوّل الزمن من إطار تنظيمي إلى أداة تفسيرية لفهم العلاقة بين الإنسان والأرض عبر التاريخ . وينجح هذا التسلسل في بناء زمن فلسطيني ممتد ، لكنه ما يزال بحاجة إلى تحويل هذا الامتداد من عرض تاريخي إلى نموذج تفسيري ديناميكي .

**ثانيًا : منهج الكتاب : السرد الكرونولوجي وأفقه التحليلي**

يعتمد الكتاب بنية كرونولوجية واضحة ، حيث ينتقل عبر العصور وفق تسلسل زمني يبدأ من الإنسان الأول ، مرورًا بالعصور الحجرية والبرونزية والكلاسيكية ، وصولًا إلى العصور الإسلامية ثم العصر الحديث والمعاصر . وقد أتاح هذا المنهج للقارئ تتبع التاريخ الفلسطيني بوصفه سلسلة متصلة ، وأسهم في إبراز عمق الزمن واستمراريته ، وهو ما يُعد من أهم عناصر العمل .

غير أن هذا البناء ، على أهميته التنظيمية ، يظل قائمًا على سرد زمني خطي يركّز على ترتيب الأحداث أكثر من تفسيرها . فالكتاب ينجح في الإجابة عن سؤال «متى حدث» ؟ ، لكنه لا يذهب

بالقدر الكافي نحو أسئلة «كيف ولماذا حدث» ؟ ، وهي الأسئلة التي تشكل جوهر التحليل العلمي في الدراسات الأثرية المعاصرة .

**ثالثًا : الأرض : حضور راسخ وأداة دفاع علمي**

تُعد الأرض العنصر الأكثر حضورًا في الكتاب ، حيث تتجلى من خلال الخرائط التفصيلية ، وتوزيع المواقع الأثرية ، ووصف البيئات الطبيعية . وقد نجح المؤلفون في تثبيت فلسطين كحيز جغرافي تاريخي ممتد ، ونقض فكرة "الفراغ" عبر عرض كثيف للأدلة المكانية .

وتكمن أهمية هذا الحضور في أنه يشكل أحد أهم مستويات الدفاع العلمي عن الرواية الفلسطينية ؛ إذ تتحول الجغرافيا إلى دليل مادي على استمرارية الوجود الإنساني . فالخرائط والمواقع لا تُعرض بوصفها معلومات بصرية فحسب ، بل بوصفها بنية معرفية تثبت أن المكان كان مأهولًا ومتفاعلًا عبر الزمن .

غير أن هذا الحضور ، رغم قوته ، يبقى في كثير من الأحيان ضمن إطار وصفي ، حيث تُعرض الأرض كمكان ثابت ، دون تطوير كافٍ لفهمها كعنصر فاعل في تشكيل التاريخ .

**رابعًا : الإنسان : بين الإثبات التاريخي والتحليل الاجتماعي**

يحضر الإنسان في الكتاب عبر مختلف العصور ، بدءًا من الإنسان الأول وصولًا إلى الإنسان الفلسطيني المعاصر . وقد نجح العمل في إثبات استمرارية الوجود البشري في فلسطين ، وهو إنجاز علمي مهم في سياق السردية الفلسطينية .

وفي القسم الحديث تحديدًا ، يظهر الإنسان بقوة بوصفه حاملًا للذاكرة والهوية ، خاصة في سياق النكبة وما بعدها ، حيث تتجلى العلاقة العميقة بين الإنسان والأرض .

إلا أن هذا الحضور لا يترافق دائمًا مع تحليل معمق للبنية الاجتماعية أو الثقافية ، ففي كثير من المواضع يُعرض الإنسان ضمن السرد التاريخي دون تفكيك كافٍ لآليات تكيفه أو تحولات مجتمعه ، مما يجعله أقرب إلى الإثبات منه إلى التفسير .

**خامسًا : الزمان : الاستمرارية بين التنظيم والتحليل**

يشكل الزمان العمود الفقري للكتاب ، إذ ينتظم من خلاله عرض المادة التاريخية . وقد نجح المؤلفون في بناء زمن فلسطيني طويل ومتصل ، مما يعزز فكرة الاستمرارية التاريخية .

ويمثل هذا البعد الزمني أحد أهم عناصر الدفاع عن الرواية الفلسطينية ، حيث يُظهر أن التاريخ في فلسطين ليس متقطعًا ، بل ممتد .

غير أن توظيف الزمن بقي في الغالب ضمن إطار خطي ، حيث تُعرض العصور بوصفها مراحل

متتابعة ، دون تحليل كافٍ للتحولات التي تربط بينها ، كما لم يُستثمر الزمن بوصفه عملية ديناميكية تتضمن استمراريات وانقطاعات وإعادة تشكل .

**سادسًا : العلاقة بين الإنسان والأرض : قوة السرد وحدود التفسير**

من خلال الجمع بين الأرض والإنسان والزمان ، ينجح الكتاب في بناء سردية فلسطينية متماسكة تثبت الوجود والاستمرارية . غير أن العلاقة بين هذه العناصر تبقى في كثير من الأحيان وصفية ، حيث يُعرض أن الإنسان عاش في هذه الأرض عبر الزمن ، دون تفسير معمق لكيفية تشكل هذه العلاقة واستمرارها .ويتضح ذلك ، على سبيل المثال ، في مواقع مثل أريحا ، حيث يكشف التسلسل الأثري عن استمرارية الاستيطان وتحوله من تجمعات أولية إلى مجتمع زراعي منظم ، بما يعكس تفاعلًا مستمرًا بين الإنسان والبيئة .

وهنا تظهر الحاجة إلى الانتقال من السرد إلى التفسير ، عبر طرح أسئلة تتعلق بطبيعة التفاعل بين الإنسان والبيئة ، وآليات التكيف ، وديناميات الاستمرارية . وفي هذا السياق ، يمكن تعميق فهم العلاقة بين الإنسان والأرض من خلال إدماج البعد الزمني بوصفه عنصرًا فاعلًا لا مجرد إطار للتأريخ ، إذ لا يكفي إثبات أن الإنسان عاش في هذه الأرض عبر العصور ، بل ينبغي تفسير كيفية تفاعله معها ضمن شروط تاريخية متغيرة . فالزمان في الحالة الفلسطينية لا يُختزل في تسلسل كرونولوجي ، بل يتجلى بوصفه عملية ديناميكية تتضمن تحولات واستمراريات وانقطاعات ، وهو ما يظهر بوضوح في انتقال أنماط الاستيطان من الكهوف إلى القرى الزراعية ، ثم إلى المدن ، ضمن سياقات بيئية وسياسية متباينة .

كما أن إعادة تعريف الأرض بوصفها عنصرًا فاعلًا ، لا مجرد جغرافية جامدة ، يفتح المجال لفهم أعمق لكيفية تشكّل أنماط الإنتاج والاستقرار ، حيث أسهمت الجغرافيا الفلسطينية بتنوعها في صياغة استراتيجيات التكيف البشري ، في حين قام الإنسان بإعادة تشكيل هذه الجغرافيا عبر الزراعة والعمران وتنظيم الموارد . ومن هنا ، فإن العلاقة بين الإنسان والأرض ليست علاقة أحادية الاتجاه ، بل تفاعل متبادل يتجدد عبر الزمن .

وعلى هذا الأساس ، فإن إدخال أدوات تحليل حديثة ، مثل قراءة الأنماط المكانية والتحليل الزمني ، إلى جانب توظيف مفاهيم مثل التكيف والاستمرارية والمرونة ، يمكن أن يحوّل السرد التاريخي إلى نموذج تفسيري يفسر آليات بقاء المجتمعات وتحوّلها . وبهذا المعنى ، لا يعود التاريخ مجرد سجل للأحداث ، بل يصبح مجالًا لتحليل العمليات التي أعادت إنتاج الوجود الإنساني في فلسطين عبر الزمن .

**سابعًا : الدفاع العلمي عن الرواية الفلسطينية**

على الرغم من الملاحظات النقدية المتعلقة بغياب التأطير النظري العميق في بعض أجزاء الكتاب ، إلا أن العمل نجح بوضوح في تقديم دفاع علمي رصين عن الرواية الفلسطينية ، لا بوصفها خطابًا سياسيًا ، بل بوصفها سردية مؤسسة على الأدلة الأثرية والتاريخية .

فقد استطاع المؤلفون ، من خلال توظيف كثيف للمعطيات المادية والزمانية ، أن يثبتوا استمرارية الوجود الإنساني في فلسطين ، ويُظهروا أن المكان لم يكن في أي مرحلة فراغًا تاريخيًا ، بل فضاءً حيويًا تشكلت فيه مجتمعات متعاقبة حافظت على تفاعلها مع الأرض عبر الزمن .

وتكمن قوة هذا الدفاع في كونه لا يعتمد على الطرح الخطابي ، بل على التراكم المعرفي للأدلة ، مما يجعله قادرًا على مواجهة السرديات المقابلة ضمن إطار علمي رصين .

**ثامنًا : نحو إطار نظري : الاستمرارية التفاعلية الفلسطينية**

انطلاقًا من معطيات الكتاب ، يمكن بلورة تصور نظري يقوم على فهم العلاقة بين الإنسان والأرض عبر الزمن ضمن إطار « الاستمرارية التفاعلية» ، حيث :

**الاستمرارية** : ليست ثباتًا ، بل تفاعل بين التغير والبقاء .

**الأرض** : فاعل تاريخي وليست مجرد حيزا جغرافيا .

**الإنسان** : فاعل تكيفي يعيد إنتاج وجوده .

**الزمن** : بنية طبقية يعيش فيها الماضي داخل الحاضر .

**المكان** : يحمل ذاكرة تتجاوز وجوده المادي وهوية متجذرة تعود لأكثر من 1,500,000 سنة .

ويفترض هذا الإطار أنه لا يناقض الكتاب ، بل يستخرج إمكاناته الكامنة ويدفع بها نحو أفق تفسيري أوسع . وهو ما ينسجم مع توجهات علم الآثار المعاصر التي لم تعد تكتفي بوصف الماضي ، بل تسعى إلى تفسيره ضمن نماذج تحليلية تربط بين الإنسان والأرض والزمن بوصفها منظومة تفاعلية متكاملة . حيث تكشف المادة الأثرية والتاريخية التي يعرضها الكتاب أن الاستيطان في فلسطين لم يكن حدثًا عابرًا أو مرحلة زمنية محدودة ، بل عملية تاريخية ممتدة ومتواصلة ، تعكس قدرة المجتمعات البشرية على التكيف مع البيئة وإعادة إنتاج وجودها عبر الزمن . فالمواقع الأثرية المنتشرة في مختلف أرجاء فلسطين ، من الكهوف الحجرية إلى القرى الزراعية ، ومن المدن الكنعانية إلى الحواضر الإسلامية ، تشير إلى تراكم حضاري لا ينقطع ، بل يتشكل عبر طبقات زمنية متداخلة .

وتبرز هذه الاستمرارية بوضوح في أنماط الاستيطان ، حيث يظهر الانتقال التدريجي من الصيد وجمع

القوت إلى الزراعة ، ثم إلى نشوء المجتمعات المنظمة ، وهو ما يعكس تحولًا نوعيًا في علاقة الإنسان بالأرض . ولم يكن هذا التحول خطيًا بسيطًا ، بل تضمن مراحل من التكيف والتغير ، حيث أعاد الإنسان تشكيل بيئته عبر الزراعة وبناء القرى وتنظيم الموارد .

وفي العصور اللاحقة ، ورغم تعاقب القوى السياسية والإمبراطوريات ، استمرت البنية الاجتماعية المحلية في الحفاظ على تماسكها ، مما يشير إلى وجود نمط من الاستمرارية الداخلية التي لا تنقطع بتغير السلطة . وتصل هذه الاستمرارية إلى ذروتها في العصر الحديث ، حيث تتحول الأرض من مجرد مجال للعيش إلى عنصر مركزي في الهوية ، وتصبح الذاكرة جزءًا من الجغرافيا ، خاصة في سياق النكبة وما بعدها .

وعليه ، فإن قراءة المادة التي يقدمها الكتاب لا تقود فقط إلى إثبات الوجود ، بل إلى فهم أعمق لكيفية استمراره ، بوصفه نتاج تفاعل مستمر بين الإنسان والأرض عبر الزمن .

**تاسعًا : الخرائط والمصادر والفهارس : قوة توثيقية تحتاج تعميقًا تحليليًا**

يتميز الكتاب بغنى واضح في الخرائط والمصادر ، مما يعزز قيمته المرجعية ، إلا أن هذه الأدوات تُستخدم غالبًا لأغراض توثيقية أكثر من كونها تحليلية ، كما أن الفهارس تبقى أدوات تنظيمية دون أن تُستثمر في فهم العلاقات المعرفية أحيانًا .

**عاشرًا : المؤلفون : ثراء علمي وتحدي الوحدة النظرية**

أضفى تعدد المؤلفين غنىً معرفيًا واضحًا ، لكنه أدى أيضًا إلى تفاوت في مستوى التحليل ، وغياب إطار نظري موحد ، مما جعل الكتاب أقرب إلى عمل موسوعي تجميعي منه إلى مشروع نظري متكامل .

وإذا ما نُظر إلى مجمل ما يقدمه الكتاب من معطيات أثرية وتاريخية ضمن إطار تحليلي أوسع ، يتضح أن القيمة الحقيقية للعمل لا تكمن فقط في توثيق الماضي ، بل في إمكانيته الكامنة لإعادة تفسيره ضمن نماذج تحليلية حديثة . فالمادة العلمية التي يعرضها الكتاب ، على كثافتها وتنوعها ، توفر قاعدة معرفية صلبة يمكن الانطلاق منها نحو بناء مقاربات تفسيرية تربط بين التحولات البيئية والاجتماعية والسياسية في فلسطين عبر الزمن .

وفي هذا السياق ، فإن إدماج مفاهيم مثل الاستمرارية ، والتكيف ، والمرونة ، والهوية ، ضمن إطار زمني ديناميكي ، يسمح بفهم أعمق لكيفية تشكّل المجتمعات واستمرارها رغم التحولات . كما يفتح المجال أمام توظيف أدوات تحليل حديثة ، مثل نظم المعلومات الجغرافية والتحليل المكاني ، بما يعزز من قدرة الدراسات الأثرية على الانتقال من مستوى الوصف إلى مستوى التفسير .

وعليه ، فإن الكتاب ، رغم طابعه الموسوعي الوصفي ، يحمل في داخله إمكانات نظرية كبيرة ، يمكن

تطويرها لتأسيس نموذج تفسيري فلسطيني في علم الآثار والتاريخ ، قادر على الإسهام في النقاش العلمي العالمي .

**تقييمنا النهائي لهذا الكتاب**

يمكن القول إن كتاب « آثار وتاريخ فلسطين» يمثل إنجازًا علميًا مهمًا ، نجح في بناء سردية فلسطينية قائمة على الأدلة ، وتثبيت الاستمرارية التاريخية ، وتقديم دفاع علمي رصين عن الوجود الفلسطيني . غير أن هذا الجهد العلمي ، على أهميته ، يظل في إطار السرد التوثيقي ، ويحتاج إلى تطوير في التأطير النظري وتحويل المعطيات إلى نماذج تفسيرية .

وفي هذا السياق ، فإن القيمة الحقيقية للعمل لا تكمن فقط في ما أنجزه ، بل في ما يمهّد له ، حيث يفتح المجال أمام مرحلة جديدة تتجاوز الدفاع إلى التفسير ، وتنتقل بالسردية الفلسطينية من كونها رواية تقوم على الحقائق والشواهد الآثارية الحضارية والتاريخية والتراثية والثقافية إلى كونها إطارًا معرفيًا قادرًا على الصمود والتأثير في الحقل العلمي العالمي والتصدي للرواية الأخرى المضادة .

وإذا ما أُخذت نتائج هذا العمل في سياق أوسع ، فإن أهم ما يكشفه الكتاب ليس فقط استمرارية الوجود في فلسطين ، بل طبيعة هذه الاستمرارية بوصفها عملية تاريخية مركّبة تتجاوز الفهم الخطي البسيط للزمن . فالمعطيات الأثرية التي يعرضها الكتاب ، عند قراءتها قراءة تحليلية ، تشير إلى أن العلاقة بين الإنسان والأرض لم تكن ثابتة ، بل أعيد تشكيلها عبر العصور ضمن شروط بيئية واقتصادية وسياسية متغيرة ، الأمر الذي يجعل من الاستمرارية مفهومًا ديناميكيًا قائمًا على التكيف وإعادة الإنتاج ، لا مجرد بقاء ساكن .

وعليه ، فإن القيمة العلمية الأعمق للكتاب لا تكمن فقط في تقديم سردية موثقة ، بل في إتاحة إمكانية بناء نموذج تفسيري يربط بين التحولات المادية والرمزية في التاريخ الفلسطيني . ومن هنا ، يمكن القول إن هذا العمل ، رغم طابعه الموسوعي الوصفي ، يؤسس – من حيث لا يصرّح – لقراءة تفسيرية جديدة تقوم على فهم فلسطين بوصفها فضاءً تاريخيًا تفاعليًا ، تتداخل فيه الجغرافيا مع الذاكرة ، والزمن مع الهوية ، ضمن مسار طويل من الاستمرارية المتحوّلة .

وبالجملة ، فقد نجح الكتاب في بناء سردية فلسطينية قائمة على الأدلة ، وإثبات الاستمرارية التاريخية ، وبرهن على قوة في التوثيق والسرد .

وفي **الختام** ، فإن هذه المراجعة توصي بتطوير إطار نظري موحد ، وتوظيف أدوات تحليل حديثة ، وتعزيز البعد التفسيري في الدراسات الأثرية والتاريخية الفلسطينية استنادا لما يورده الكتاب .